مقياس : مضمون الخطاب الشعري القديم

سنة أولى ماستر: تخصص أدب قديم

أستاذة المقياس:وهيبة لماني

التطبيق الرابع: غرض الغزل

يعد الغزل من الأغراض الشعرية الحاضرة بقوة في الشعر الجاهلي، فمعظم الشعر الذي وصلنا من الجاهلية يكاد يكون قاصرا على الغزل أو متصلا به. والأغراض جميعا من فخر ومدح وهجاء ورثاء لا تعدو أن تكون قسيما لشعر الغزل،

لنقرأ مثلا هذه الأبيات المتفرقة من معلقة عنترة:

هل غادر الشعراءُ من مُتَرَدَّم أم هل عرفتَ الدار بعد تُّوهمِ

يا دارَ عَبلةَ بالجِواء تكلّمي وعِمي صباحًا دارَ عَبلة واسلَمي

...أثْني عليَّ بما علمتِ فإنّني سمحُ مخالطتي إذا لم أُظلَم

وإذا ظُلمت فإنّ ظلمي باسل مُرٌّ مذااقتُه كطعم العَلْقَمِ

...وإذا شربتُ فإنني مستهلك مالي وعِرضي وافرُ لم يُكَلمِ

وإذا صحوتُ فما أقصر عن ندى وكما علمتِ شمائلي وتكرّمي

هلاّ سألت الخيلَ يا ابنة مالكِ إذ كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

يخبرْكِ من شهد الوقيعة أنني أغشَى الوغَى وأعِف عند المغْنمِ

ومُدجّج كره الكُماةُ نِزاله لأُمْعنِ هربًا ولا مستسلمِ

جادت له كفي بها جل طعنةٍ بمثقفِ صَدْق الكُعوبُ مقوّم

فشككتُ بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريمُ على القنا بمُجرمِ

فتركه جَزَرَ السّباع يشُنه يقضُمنُ حسن بنانه والمِعصمِ

نلاحظ عند قراءتنا للأبيات أن الشاعر لم يكن يفتخر للفخر ولم يكن يتمدح بفعاله للمدح ، وإنما كانت عبلة وديارها ملء ذهنه ، وملء قلبه كذلك ....كان يفكر فيها ويدور حولها وكان منها ينطلق إن تغزل وإليها ينتهي إذا افتخر ، وكان خيالها وراءه في هذه المشاهد التي ينشرها ، مشاهد الركوب إلى الغزو، ومشاهد القتال في المعركة...إن الغزل هنا ، كما نلاحظ ، هو المنطلق الأول للشاعر وهو الباعث الحثيث

ويمكن أن نقسم الغزل الذي وصلنا عن الجاهليين إلى الأنواع التالية:

١-غزل كان يقصد إلى الوقوف على الأطلال وبكائها ووصفها " الوقوف على الأطلال"

٢-غزل كان يتجاوز هذه الأطلال فيذكر ارتحال الأحبة عنها ويصف هذا الارتحال ويتمثل مسالكه ومنازله: "مشاهد التحمل الارتحال"

٣-غزل كان يقف فيه الشعراء عند صور صواحبهم فيصفونهن ويتحدثون عن مفاتنهن الجسدية ويستقصون –كلٌّ بالقدر الذي استطاع –هذه المفاتن " وصف المحاسن الجسدية "

٤-غزل يجاوز ذلك إلى أن يذكر ما يكون من اجتماع الشاعر إلى صاحبته ولقائه لها " الغزل المفحش "

٥-أبيات يتحدث فيها الشاعر عن رأيه في الحب ونظرته إلى المرأة " آراء في الحب "

أهم ما يميز هذا الغزل

١-الوضوح والجرأة

٢-غزل مباشر

٣-ألفاظه أقرب إلى الرقة والإلف

٤-تنوع هذا الغزل بين الإغراق في الأوصاف الجسدية وبين الالتفاف إلى مكارم الأخلاق وسمّو المكانة الاجتماعية

٥-يلعب التشبيه دورا كبيرا في عرض مختلف النماذج الغزلية

الغزل في صدر الإسلام :

يتحتم علينا ونحن نتطرق إلى غرض الغزل في صدر الإسلام أن نميز بين طائفتين مختلفتين مصدر الاختلاف بينهما لا يعود إلى الاختلاف في الأسلوب أو التمايز في التعبير أو التباين في الصبغة الفنية ، كما كان الشأن في العصر الجاهلي حين كان يلف الحياة كلها لون واحد أو متقارب من النزوع أو من الفكر ، وإنما يعود قبل ذلك إلى مدى التجاوب مع الحياة الجديدة بنزوعها وتفكيرها بأوامرها ونواهيها

١-الطائفة الأولى: طائفة من الشعراء الذين أسلموا ولكن نفوسهم لم تبرأ من خلال الجاهلية ولم تَصفَ من كل أثارها، ولذلك لم يستطيعوا أن ينثنوا عما كانوا فيه ، فظلّ يعيش معهم، في حياتهم الجديدة في الإسلام ، ميلهم إلى الشراب وضعفهم أمام النساء وإسراف فريق منهم في هذه الأمور إسرافا يوشك أن يبلغ حد المجون ، من شعراء هذه الطائفة " أبي محجن الثقفي، سُحيم عبد بني الحسحاس ....إلخ "

٢/الطائفة الثانية: طائفة الشعراء الذين انقادوا للحياة الجديدة آمنوا بمثلها والتزموا حدودها " حسان بن ثابت ، كعب بن زهير ..." نجد الغزل عند هؤلاء لا يتجاوز وصف الأطلال أو ذكر الخيال أو الحديث عن مواعيد لا وفاء لها ولقاء لا سبيل إليه .فادفعوا الغزل في طريق جديد، يوجز في التعبير عنه ويقتصر في هذا التعبير على ما لا يؤدي شعور الأفراد أو مثل الجماعة ويؤكد دائما على نقاء الحب وصفاء العواطف .

وعلى العكس من ذلك كانت الطائفة الأولى تتأرجح بين بقايا الأهواء المتأصلة في نفوسهم والنظم التي تسود مجتمعهم ، ولذلك لم ينصرفوا عن هذه الأهواء وإنما عبروا عنها، في صراحة حينا وفي مواربة ورمز حينا آخر، وفي قص حينا ثالثا.

الغزل في العصر الأموي :

يتوزع الغزل في هذا العصر على نوعين

١/**الغزل العذري:** الغزل العذري هو المظهر الفني للعواطف المتعففة والملتهبة في آن معا، والتي وجدت أن هذا التعويض الفني هو خير ما تطفئء به لهبها وتتسامى به في غرائزها ،من صفات هذا النوع من الغزل العفة والديمومة ، معانيه بسيطة تصل أحيانا إلى حد السذاجة لاحظ ذلك في شعر جميل بثينة ...إن الجانب الانفعالي من نفسه الشاعرة هو الذي يستبد بكل اهتمامه، إن الشاعر يحدثنا بعيدا عن مكر الشعراء في معانيهم وتفننهم وتزويقهم بل إنه لا يحدثنا وإنما يحدث نفسه، يعيد عليها حديث نفسه ذاتها... لاحظ أنه لا يهم الشاعر أن يعاود المعنى أو يعاوده قريبا من صورته السابقة أو مثل صورته السابقة، كما لا يهمه أيضا أن يكون المعنى طريفا أو جديدا، عميقا أو بعيدا وكل الذي يهمه هو أن يعبر عن هذا الفيض النفسي الذي ملأه كائنا ما كان أمر المعاني في ذلك... "

الخصائص التي ذكرناها سابقا تحيل إلى خاصية أخرى من خصائص الغزل العذري وهي وحدة الغرض ووحدة الاتجاه.

*الأسلوب المباشر : قصائد الشعراء العذريين خالية من المقدمات التي تستبق الموضوع ، وقلّ أن نصادق بيتا أو أبيات تعيش على هامش القصيدة.

*اليأس: الحب العذري يعيش على اليأس بأكثر مما يعيش على الأمل ومن هنا انعكست هذه الصفة ظاهرة أسلوبية معينة في الشعر العذري هي رنة الأسى التي تفوح من هذه القصائد وطابع التشاؤم والحزن الذي يكسوها

٢/**الغزل العمري**" نسبة إلى عمر بن أبي ربيعة "

صفات هذا الغزل

*غزل عمر بن أبي ربيعة غزل جديد في تاريخ الشعر العربي من حيث المرأة التي يتغزل بها، فهي امرأة متحضرة أُتيح لها من الفراغ وأسباب زينة الحياة ما لم يُتحْ للمرأة الجاهلية

يقول عمر بن أبي ربيعة :

ولقد قالت لجارَاتٍ لها كالمَهَا يَلعَبْنَ في حُجْرتها

خُذْنَ عَنِّى الظِّلَّ لا يتبعُني ومَضتْ تَسْعَى إلى قُبَّتها

وهذا دلال أيُّ دلال ، أن تطلب امرأة من جواريها أن يأخذن الظل عنها .

وغزل عمر بن أبي ربيعة فيه الكثير من أحاديث النساء ووما يجول في أذهانهن

أكما يَنْعتني تُبصرنني عَمْرَكُنَّ الله أم لا يَقْتصِدْ

فتضاحكنْ وقد قُلْن لها حَسَنُ في كل عيْنٍ مَنْ تَوَدّ

حَسَدًا حُمِّلنَه من أجْلِهَا وقديمًا كان في الناس الحسَدْ

وهذا جانب طريف في غزل عمر بن أبي ربيعة، فنحن لا نجد الغزل المألوف الذي يُعْنى بوصف حُبّه ، وإنما نجد شاعرا يعنى بوصف المرأة نفسها ، ووصف أحاسيسها، وكأن غايته من ديوانه أن يصف المرأة وصفا نفسيا، إن الشاعر حوّل الغزل من الرجل إلى المرأة فهو المعشوق لا العاشق

قالت لِتِرْبٍ لها تحُدِّثُها لنُفْسِدَنَّ الطوافَ في عُمَر

قُومِي تصدَّى له ليَعْرِفَنَا ثم اغمزيه يا أُختَ في خَفِّرِ

قالَت لها غَمَزْتُه فأبى ثم اسْبَطرَّتْ تَسْعَى على أثَرِي

فعمر هو المتبوع لا التابع ، وهو المطلوب لا الطالب، وهو المعشوق لا العاشق فالنساء يُفْتَنَّ ، ويَتَصدَّيْن له، وينتهزن كل فرصة للقائه ، ويُشرْنَ له باليد حينا وبالعين حينا آخر وهو في كل ذلك لا يُعنَى ولا يَلْتَفِتُ دلالا وَتِيهًا ، وإعجابا بنفسه وبجماله.

خَبَّرُوها بأنَّني قد تَزوَّجْ تُ فظلَّتْ تُكاتِمُ الغَيْظَ سِرّا

ثم قالتْ لأختها ولأُخْرَى جَزَعًا ليْتَهُ تزَوَّج عَشْرًا

وأشارتْ إلى نساء لديها لا ترىَ دونهن للسِّرّ سَتْرًا

ما لِقَلْبي كأنه ليس مِنِّي وعظامي إخالُ فيهنّ فَتَرا

من حديثٍ نَمى إليَّ فظيعٍ خلتُ في القَلْب من تَلَظيِّه جَمْرَا

*يمكن أن نستشف من الأبيات السابقة خاصية تميز بها الغزل العمري وهي طابع القصص والحوار الذي يشيع في غزله

*استخدام عمر بن أبي ربيعة أوزان خفيفة تلائم موجة الغناء التي كانت منتشرة آنذاك، فاستعمل أوزان سهلة تتيح للمغني أن يحملها من الألحان والإيقاعات ما يشاء

*تقصير الأوزان وتجزئتها على نحو ما نقرأ في قوله :

قُل لهْندٍ وترْبهَا قبل شَحْطِ النَّوَى غَدَا

إنْ تَجُودي فَطَالما بتُّ لَيْلى مُسَهَّدَا

وهو من مجزوء الخفيف . وهذه التحريفات التي حدثت في الأوزان حصلت تحت تأثير الغناء. فشعر عمر بن ربيعة كتب لكي يغنى .

- لغته قريبة . مألوفة للناس ، ليس فيها الإغراب الذي نجده عند القدماء أو الذي نجده عند شعراء العراق من مثل الفرزدق وإنما فيها الخفَّة والقربُ وما يلائم الأذواق المتحضِّرة الجديدة.

الغزل في العصر العباسي:

عرف العصر العباسي ازهار فن الغزل بنوعيه " الغزل الصريح والغزل العفيف " لا سيما الغزل الصريح بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان روميات وخراسانيات وغير خراسانيات ورومیات ، إماء وقيان من كل جنس وقد أخذت يتسلطن على الحياة العباسية ويُشِعْن فيها كثيرا من صور التحلل الخلقي ، مستبدات بمكان الحرائر القديم من الشعراء ، ونفس الشعراء كانت كثرتهم من الوالي الذين نبذوا التقاليد الخلقية الاسلامية والعربية ، إما بعامل الزندقة والشعوبية، وإما بعامل الترف وما ينتشر معه من فساد الأخلاق وشتان بين الغزل الصريح في هذا العصر عند مطيع ابن إياس وأبي نواس وأضرابهما وبينه في العصر الأموي عند عمر بن أبي ربيعة والأحوص وأمثالهما ، إذ كانوا يحتفظون بغير

قليل من الوقار والحشمة، أما مطيع وأبو نواس وبشار ونظراؤهم العباسيون فقد خرجوا عن كل حشمة ووقار خروجا يشبه أن يكون ثورة ، بل هو ثورة حقيقية ، فهم يتحدثون في غزلهم عن غرائزهم النوعية في غير تعفف ولا حياء ولا كرامة ، وقد استحدث كثيرون منهم باستثناء بشار – ضربا جديدا من الغزل الصريح ،وهو الغزل بالغلمان ، وهو يصور ما انتهت إليه حياتهم من الفساد لكثرة الرقيق ، وقد أطلقوا لأنفسهم فيه العنان لا يرعوون ولا يستحون.

وإلى جانب الغزل الصريح نجد الغزل العفيف يضعف في العصر العباسي الأول الذي قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر ، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف، وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجواري ثم بِعْنَ وضُرِب بينهم وبينهن حجاب صفيق ،فعاشوا يتعذبون بالحب ، وعاش الحب في قلوبهم قويًّا حادًّا.

يقول محمد بن أمية في جارية شُغف بها شغفا شديدا:

رُبَّ وَعْدٍ منكِ لا أنساهُ لى أوجبَ الشكرَ وإن لم تفعلى

أقطعُ الدهرَ بظَنِّ حَسَنٍ وأُجَلِّى غَمْرَةٍ ما تَنْجَلى

كلما أمَّلْتُ يومًا صالحا عرضَ المكروهُ لي في أملى

وأرى الأَيام لا تُدْنِي الذي أرتجي منكِ وتُدْنى أجلي

ولنا أن نميز بين هذا الغزل وغزل العصر الأموي الذي كان له تأثير بالغ في النفس والقلب.

ويقول العباس بن الأحنف :

أبكي الذين أذاقوني مودَّتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رَقَدُوا

جاروا عليَّ ولم يوفوا بعهدهمُ قد كنت أحسبهم يوفون إن عَهِدوا

لأخرجنَّ من الدنيا وحبُّكمُ بين الجوانح لم يشعر به أحَدُ.